ضياء العزاوي في مشغله

فن تشكيلي

ضياء العزاوي من الرسم الى النحت

عودة لبيئة الطين

منحوتة ـ طين

لندن ـ الافق

١

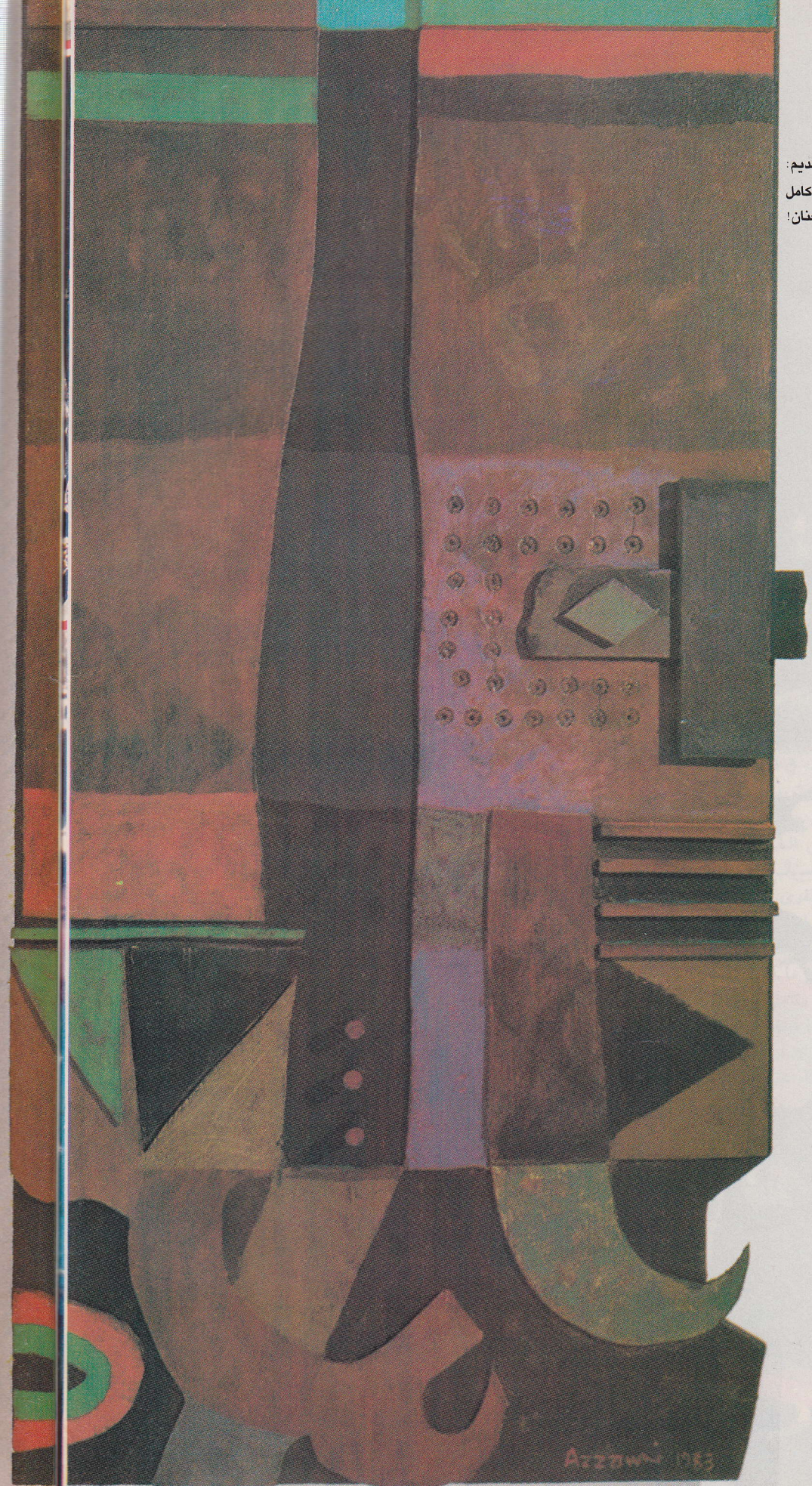

باب بغدادي قديم: بورتريت كامل للفنان!

في مسيرة كل فنان ثمة رجوع دائم وملح نحو نقطة مضيئة (أو معتمة) تشكل في النهاية مركز الثقل في بحثه. قد تكون تلك النقطة هي الباعث الاول الذي دفع بالفنان نحو فن خاص من الفنون. هذا الباعث يمكن ان نستشفه من الحاح الفنان المستمر على تلك النقطة وتكرارها الدائب في اعماله.

ولان الفنان العراقي هو وريث تشكيل عريق، فان البحث عن هوية معاصرة أصبح هاجساً ملحاً ودائما، لوضع التراث التشكيلي موضع التساؤل وللوصول بالبحث التشكيلي الى مرحلة تمكن الفنان من ان يقول فنه بطرائق جديدة مثلما حدث في الشعر (الانتقالة الى الشعر الحديث) أو في القصة (التخلي عن طريقة السرد التقليدي).. الخ.

غير أن هذا البحث الملح عن هوية معاصرة من ناحية وعن هوية قومية من ناحية اخرى (بين هُوّتي التراث والمعاصرة) يعرض الفنان لخطرين: خطر السقوط في فخ الاستهلاك الفلكلوري وخطر التقليد السطحي، اذ لم تنشأ عندنا قواعد صحية تشبه مناطق استكشاف تمكن الفنان من التمحيص واستعادة ماهو اساسي في تراثه وماهو ضروري في عصره وعلى الفنان ان يذهب وحيدا مع حاسته وموهبته كمن يدخل مكتبة وطنية وليس في عدته ولا حتى فهرست للكتب الموجودة.

ان قلة من الفنانين وجدوا طرائقهم في التعبير واستطاعوا ان يتركوا بصماتهم على القماش (أو على الحائط)، ويمكن القول دون تردد بان ضياء العزاوي هو من بين تلك القلة.

٢

ما أسميته بمركز الثقل في بحث الفنان .. اين هو عند العزاوي؟

مصدران يمكن ان نرى على ضوئهما مسيرة الفنان: الاول هو الاثار (الاركيولوجي) والثاني هو فن المنمنمات والزخرفة الاسلامية وفن البسط العراقية كما هو مُصفّى ومقدّم من قبل مدرسة بغداد للفن الحديث.

● ان دراسة العزاوي للآثار لم تكن محض صدفة دون شك، فوراءها

رغبة أكيدة لاكتشاف غبار الايام الطاعنة في البعد - في الوقت الذي كان فيه يتابع دراسته في معهد الفنون الجميلة.

غير ان كلمة الاركيولوجي تنطوي على معنى اخر هو: الملمس (texture) . ان القطعة المكتشفة: جرة، قطعة فخار، لوح طيني ... الخ، تحمل في طياتها الوانا مكتنزة عبر قرون. وهذه الالوان هي الوان مطفأة دون شك - ومن هنا ايضا يأتي سحرها الدافق.

أعتقد ان عمل العزاوي ينطوي في النهاية على فهم شعبي عميق لذلك الاثر المكتشف: ذلك يعني الرغبة العميقة والخفية في آن واحد، للوصول الى لحظة ولادة الاثر نفسه. اللحظة التي انتهى فيها الصانع القديم من نحت عمله.

العزاوي في عمله يحاول ان يصل الى تلك اللحظة بشكل معكوس وذلك باعادة تكوين الاثر القديم بالوان جديدة، وتزويقه ايضا - فهو وريث شرعي ليحيى الواسطي، ولكن عمله - وهذه هي هويته الكبرى - هو عمل جديد. هذا مانسميه عادة بالتواصل.

أي ان عمل العزاوي يذهب الى العكس من عمل الآثاري. ففي الوقت الذي يحافظ فيه الآثاري على الوان الاثر الحقيقية فان العزاوي يعيد تلوينه، ليرجعه لهيئته الاولى ولكن بروح جديدة، وفي الحالتين فان الامر ينطوي على شيء من السحر.

٣

في مشغل ضياء العزاوي يفاجيء الداخل بوجود منحوتات طينية (رلييف) أخذت مكانها عنوة قرب مكائن الطبع التي تحتل يسار المدخل. ان كلمة طين هي كلمة - مفتاح لعمل العزاوي، فمنذ بداياته - كما يذكر هو - كان كتاب (كتابة على الطين) الذي قرأه في فترة دراسته في قسم الاثار قد حفز فيه الرغبة في عمل منحوتات طينية، غير انه سرعان ماأهملها مستسلما لسحر اللون. وبعد سنين طويلة من تلك الرغبة يصرح لنا العزاوي في مشغله بانه سينصرف كليا الى النحت!.

المنحوتات الاربع الموجودة في مشغله تبدو وكأنها قد خرجت للتو من حلم قديم. انها منحوتات طينية وقد فخرت واتخذت ملمسا خشنا، ذلك الملمس الذي يميز المنحوتات العراقية القديمة. غير ان العزاوي

نافذة شرقية - خشب

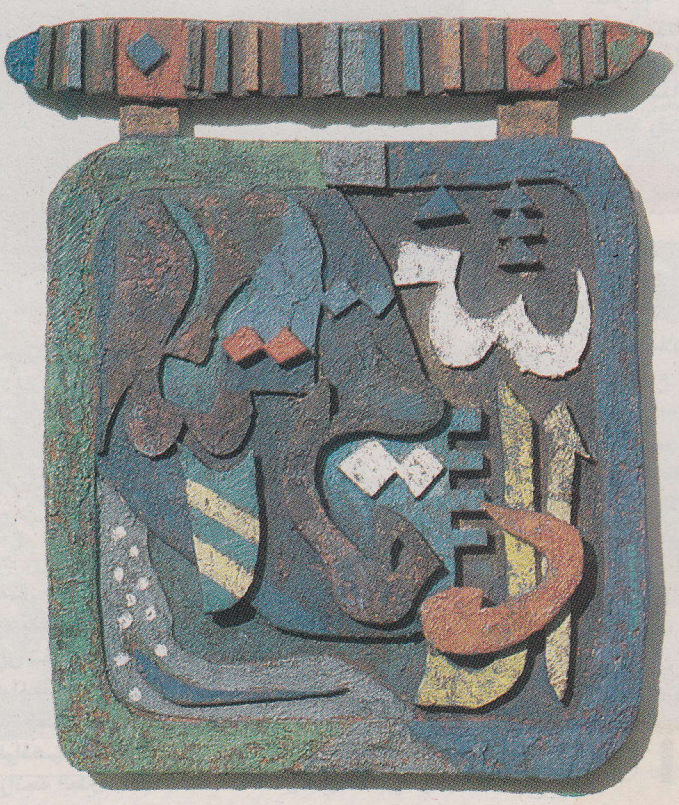

منحوتة - طين

هو ملّون كبير (ومزّوق مجيد) ومادة النحت لاتتطلب عادة الكثير من الالوان. غير ان العزاوي في ذهابه للنحت لايترك عدة الرسم - الالوان - ربما أراد العزاوي ان يقول: سأنصرف للرسم المنحوت. ولكن رسمه لم يكف يوما عن ان يكون منحوتا. ما الذي يريد ان يقوله اذن. انه ببساطة يريد ان يعود للطين، لبيئة الطين العراقية، لملمسه، لعذوبته، لعذابه.

في منحوتات العزاوي ثمة صفاء من نوع خاص. انه صفاء الطين المفخور، ولكن هذه المنحوتات الصغيرة الحجم (بالنسبة للوحات المعلقة الى جانبها) هي اعمال تحمل انوثة خاصة، انوثة معرضة للكسر وللجرح، ولكي تواصل الاحتفاء بانوثتها هذه فان الفنان يضطر لعزلها تحت اطار مجسم من الزجاج، غير انها تظل تحمل هشاشتها كجرح قديم. الهشاشة هي عنصر الصلادة الوحيد فيها.

في جميع مراحل العزاوي (استيحاء الاساطير والملاحم العراقية، التراث الاسلامي، الثورة الفلسطينية، المعلقات، القصائد الحديثة .. الخ) يبدو وكأنه يحمل ثقلا عسيرا. لان جميع هذه «الثيمات» تظهر وكأنها حجة للوصول الى ثيمته الاساسية: وهي جماليته الخاصة التي تنصر فيها جرار البرونز والفخار والمنمنمات الهشة القابلة للاحتراق والتمزق. مسيرة عمل العزاوي هي تراكمات لصنع نوع من الجمال الخاص ولكن كل هذه التراكمات - التي تشبه التراكمات البحرية الاسرة - لن تنجح في اخفاء الصفة الاساسية في عمل العزاوي ومسيرته: الجرح. وفنه في النهاية هو فن الجمال الجريح .. ولذلك - ربما - يصبح هذا الجمال اليفا وقريبا.

في مشغله هناك الكثير من الاعمال المنتظمة في تبعثرها: كتب، كتالوجات وبالاخص لوحات كثيرة ومنحوتات، الوان، غير ان مشغل العزاوي ينفرد بصفة خاصة ايضا. من السلم الذي يبدأ بعد الباب بخطوات وحتى طرف المشغل كل شيء يبدو مبعثرا. والمشغل ذو السقف العالي يبدو وكأنه يضيق بما هو موجود. ولكن رغم هذا الانطباع - الذي تخلقه كثرة الموجودات في المشغل - فان كل شيء فيه جميل. ليس ثمة قبح في اي مكان منه. ان

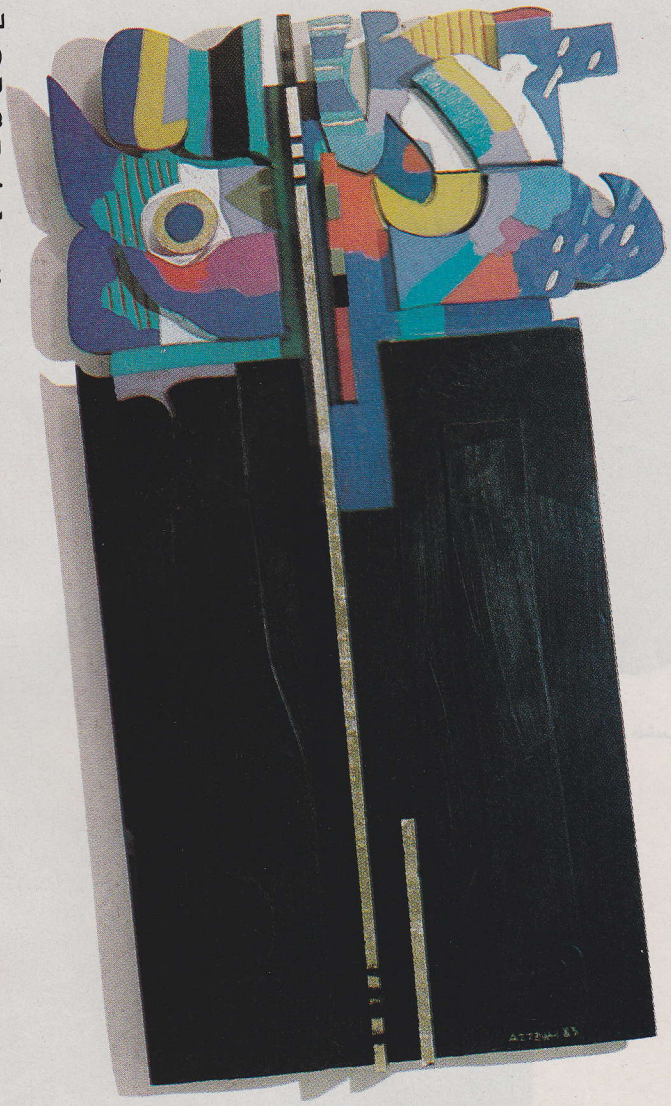

منحوتة - خشب

صفة الجمال هذه هي صفة عامة لحياته ولاعماله. اناقة وجمال الاشياء لن تخفي ابدا مسحة الجرح! تلك المسحة هي التي ستقود طالب الاثار القديم بشواربه الكثة للانحياز لرائحة أليفة لجميع العراقيين: رائحة الطين.

٥

المنحوتات تبدو وكأنها تحت رحمة ماأسميته بالملمس. وهذه الصفة ملازمة لها حتى في اللون، فهو يمتلك - فيها - ملمساً خاصا ايضا، ملمس غير مسطح. واحدة من هذه المنحوتات تحمل شكلا أليفا وجديدا (باب بغدادية)، وهي منحوتة تستحق وقفة طويلة لوحدها.

إن ضياء العزاوي هو ادرك الناس بعزلته، وهو يحوك لوحاته في منتصف هذه العزلة

مصدر عزلته الرئيسي هو اسلوبه الفني دون شك، فقد اختط العزاوي لنفسه منهجا تشكيليا منذ اكثر من (٢٥) عاما. ولكن هذا المنهج هو اسلوب وذلك يعني في النهاية طريقته في الحياة. غير ان الاسلوب - وكيفية المحافظة على الاسلوب - هو انتصار حقيقي للفنان، ولكنه في الوقت نفسه سجن شديد العزلة. ولكن هذه العزلة لابد منها لكي يخلق لنا الفنان كل مرة ثمارا غريبة في غابتها.

وقد بدا وكأن منهج العزاوي كان يقوده شيئا فشيئا الى محطة تشبه بابا مقفلاً. وهو باب تمكن العزاوي من تركيبه ورسمه ونحته عام ١٩٨٣. ان هذا الباب (باب بغدادي) هو من أجمل وأرق اعمال العزاوي النحتية لانه يبدو كما لو كان يحمل جرحه الصدىء دون خشية وبلا خجل. الوانه الصدئة تبدو وكأنها كانت موجودة في صلب الخشب. والاستدارة الخفية للخشب (وهو مادة خشنة غير طيعة) هي لينة تماما في هذه المنحوتة. ولكنها تبدو وكأنها جرح فاغر. هذا الجرح يمكن تلمسه دون عناء، فهو جرح شديد العراقية.

إن هذا العمل، اذا ماتجرأنا وقلبناه بالمعكوس - هو بورتريت كامل لضياء العزاوي!.

منذ وقت طويل أخذ الحرف يشكل

٦

وحدة من وحدات لوحة العزاوي شأنه شأن المثلث البغدادي المتكرر أو الهلال او النقاط او الكف او التشكيلات الزخرفية المتعددة الاضلاع .. الخ. ولكنه في لوحة العزاوي - وبالاخص في منحوتاته - حرف أثري. ولكي نراه ينبغي ان نفك ارتباطه بما حوله. ان نشذبه من الالوان المتعلقة به، ومثلما يحدث في الكتابة حينما تكون الدلالة لفظية. فان حرف العزاوي يمتلك دلالة جمالية، فهو يغطي مع بقية الموتيفات - وبكثير من الصعوبة - ذلك الجرح القديم الانيق الذي تفضحه قسمات وجه العزاوي الدامعة. □

سعيد فرحان